إسهام حكام بني رستم في أسلمة وتعريب مجتمع المغرب الأوسط

أدة. فاطمة بلهواري*

الملخص:

تعتبر الدولة الرستمية أول دولة مستقلة أقيمت على أرض بلاد المغرب الأوسط – الجزائر حاليا – وكان لحكامها الدور البارز في دفع حركة أسلمة وتعريب المجتمع الجزائري خلال منتصف القرن الثاني والثالث الهجريين /8-9م، غير أن الأمر لم يكن بالسهل في مجتمع قاعدته الاجتماعية تشكلها عناصر بربرية اللسان، ولذا بذلت جهود جبارة لتعريبه وتثبيت الإسلام فيه، وما كاد أن يبزغ القرن الرابع الهجري /10م حتى شهدت المنطقة عناصر من البربر يزاحمون العرب في لغة الضاد، ويناظرونهم في قواعد الأصول والفروع وتجلى ذلك بما خلفه هؤلاء من مصنفات علمية.

وسنتناول ضمن هذه الورقة البحثية عوامل ومظاهر اهتمام الحكام الرستميين بحركة الأسلمة والتعريب داخل المجتمع.

Abstract :

State Rustumiya is the first independent state established on the land of the Maghreb central - Algeria now - and had leaders leading role in promoting the Islamization and Arabization of the movement of Algerian society in the middle of the second and third century AD/ 8-9, but it was not the plain in its social base formed by elements of society the Berber language, and so has made great efforts to Arabization and install the Islam even came close out the fourth century AH / 10 p.m. so

* – أستاذة بكلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية ، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة وهران 1، الجزائر.

that the region has seen brebers elements throng the Arabs in the language of Arabic.

We will discuss in this article the movement of Islamization and Arabization in the community.

مقدمة:

أول ما يسترعي الإنتباه الإشكالية التي يعالجها موضوع هذا المقال والموسوم بـ" **إسهام حكام بني رستم في أسلمة وتعريب مجتمع المغرب الأوسط** " فهل معنى هذا أن إسلام بلاد المغرب الأوسط كان خلال هذه المرحلة التاريخية ؟ وهل مفهوم الأسلمة خلال هذه المرحلة التاريخية يختلف عن مفهومه الأساسي؟ وهذا الإشكال سيدفعنا إلى تحديد بعض الميكانزمات العالقة بالمفاهيم وتطورها تاريخيا.

أولا: إشكالية أسلمة وتعريب بلاد المغرب خلال المرحلة المبكرة من الفتح:

لا طالما أثارت إشكالية انتشار الإسلام في بلاد المغرب النقاش بين المهتمين بتاريخ المنطقة، من مشارقة ومغاربة وأوروبيين، معتمدين في ذلك على ما نقله ابن خلدون عن ابن أبي زيد القيرواني في قوله: "ارتدت البربر اثنتي عشر مرة من طرابلس إلى طنجة "[2]. وقد حسم أمر هذا الموقف بتعليل ظاهرة الردة إلى الأخطاء الإستراتيجية التي وقع فيها بعض القادة المسلمون في أن أعرضوا عن مدن الشمال، مما أتاح فرصة للبيزنطيين المتواجدين هنالك في إشعال نار الثورة ضد المسلمين، وقطع خطوط التواصل مع الشرق[3]. إلى جانب أزمات الخلافة والتي انعكست سلبا على تتبع تطورات الأحداث في بلاد المغرب.

والسؤال الذي يتبادر إلى الأذهان إلى أي حد أسلم وتعرب المغاربة خلال المرحلة المبكرة من انتشار الإسلام؟ في الحقيقة تقف الإستوغرافيا حجرة عثرة للإجابة عن هذا التساؤل الدقيق، وذلك في غياب نصوص صريحة حول الموضوع بل أقدم ما وصل إلينا يعود إلى القرن الثالث الهجري مع رواية بن عبد الحكم ت257هـ. وقد كان

لهذا الاشكال المنهجي أثره في فتح مجال الفرضيات حول الموضوع، حيث جنحت غالبية الدراسات[4] ، التي تطرقت لمرحلة الفتح إلى اعتبار أن إسلام البربر لم يعد أن يكون سوى اعترافا بسيادة دولة الخلافة، وقبلوا الاندماج بالأمة الإسلامية معتبرين أن إسلام المغاربة في تلك الفترة المبكرة إسلاما سطحيا، فتعريبهم كان أكثر سطحية[5]. كما لا يعني تفهما عميقا لمقاصد الدين الإسلامي ولا اتخاذ لغة الضاد وسيلة للتعامل اليومي، وأن إسلام البربر وتعريبهم تطلب زمنا طويلا، وذلك بقرون بعد الفتح العسكري على يد أمراء بربر بعد أن استقل المغرب سياسيا عن المشرق.

في حين ذهبت أخرى إلى أن عجلة الإسلام والتعريب تدافعت منذ البدايات الأولى للفتح[6]، مؤكدين أن البربر اعتنقوا الإسلام عن رغبة أصيلة فيه، وعن حب لمبادئه وتعاليمه ودليلهم في هذا بهجرة صولات بن وزمار إلى الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) إنما كانت عن باعث نفسي خالص لاعتناقه الإسلام، ثم عودته إلى افريقية كمبشر وداعية لهذا الدين الجديد. وإن إذعانهم لحكم إسماعيل بن أبي المهاجر الذي تولى حكم افريقية من قبل الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز سنة 100هـ إنما كان إذعانا تلقائيا، لأنه كان خير أمير وخير وال وما زال حريصا على دعوة البربر إلى الإسلام حتى أسلم بقيتهم بافريقية على يديه[7]. لذا ترددت عبارة "أسلم البربر وحسن إسلامهم"، غير أن الأمر يدعو الى تمحص عميق في هذه الدعاوى فمَنْ المقصود هنا ؟ لاشك أنهم الرؤساء والشيوخ دون غيرهم[8]. لو تصورنا إسلاما عاما شاملا واعيا لا استشكلنا كل الوقائع اللاحقة في التاريخ الديني لهذه المنطقة، والتي لها علاقة بظاهرة الأسلمة والتعريب، والمتمثلة في حالات الردة والدعوة إلى اعتقادات معادية للإسلام، وجهل للغة العربية ضمن شريحة كبيرة في الوسط الإجتماعي، وبالتالي إلى أي حد أسلم وتعرب المغاربة؟

وعليه، نرجح أن انتشار الإسلام واكب العمليات العسكرية، وهذا بدا ضروريا خلال هذه المرحلة، وهو الذي تحقق بسرعة على خطوط الجبهات، وانتهى بتحقيق الغلبة والطاعة، وأما المشروع الثقافي، فهذا ما لم يتحقق بنفس المستوى والسرعة[9]، فحركة التعريب وإن كانت أبطأ من حركة الأسلمة فستغزو تدريجيا المدن ثم السهول وأخيرا الجبال، هذا وإن بقيت اللغة المحكية اللغة البربرية إلاّ أن الثقافة المكتوبة كانت بالعربية[10]؛ لأن الأمر يتطلب الاكتشاف الداخلي للمجتمع المفتوح قبل وصول إلى عملية التقبل التنظيمي من أجل تطبيق الشريعة الجديدة أي –الشريعة الإسلامية –وهنا حدث التقاطع بين القديم والجديد بين الموروث المحلي وبين التنظيمات الجديدة التي جاء بها القرآن الكريم، ودعا إليها النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)، وعمل بعض قادة الفتح ورجال الحكم الإسلامي في المغرب، على نشرها وتطبيقها والاعتراف بها اعترافا اجتماعيا[11].

وبالتالي، فالحديث عن الأسلمة مجتمع بلاد المغرب الأوسط بعد مرحلة الفتح المشهودة ليس بالأمر الغريب، حيث قصد بها بعث وتجديد واقعيا مبادئ الإسلام وروحه بعد أن أساء ولاة بني أمية التصرف في إدارة البلاد وفق الشريعة الإسلامية. وهذا ما سنتولاه عند الحديث عن اعتناق سكان بلاد المغرب الأوسط للمذهب الخارجي، إذ كان في الواقع كما ذهب اليه المؤرخ الجزائري مبارك ميلي في قوله:" إنه محاولة جدية للذهاب بالإسلام إلى أعماقه والرجوع به إلى بساطته ووضوح مبادئه، والتي كانت أكبر عامل من عوامل انتشاره "[12].

ثانيا: ظروف نشأة الدولة الرستمية في المغرب الأوسط:

تسببت مجموعة معطيات في نشأة الدولة الرستمية في بلاد المغرب الأوسط،؛ إذ كان تاريخ قيامها إعلانا لوضع حد للدولة العربية المركزية في بلاد المغرب وفتح أفاق

للدولة المغربية في فرض الذات المحلية، حيث كان لفكر الخوارج التحرري دور في انتشار المذهب الاباضي، والذي سيشكل المحور الرئيس للدعوة الدينية في تلك الربوع.

والمتتبع للتطورات التاريخية التي شهدتها المنطقة، لا يمكنه تحديد بدقة ووضوح تاريخ ظهور دعوة الخوارج في بلاد المغرب بسبب تضارب الروايات واختلافها، وهذا ما زاد في الإشكال المنهجي، نظرا لسرية الدعوة والتأخر في تدوين الأحداث. في حين يرجح الظهور الحقيقي إلى أواخر القرن 1هـ وأوائل القرن 2هـ. والمتفق حوله أن فرقتين فقط منهم برزت بوضوح كبير في أحداث المغرب: الاباضية والصفرية والتي صارت لهما أعددا كبيرة. وقد اعتنق البربر مبادئ وأفكار الخوارج، والتي وجدت صدى عندهم بسبب تأزم أحوالهم وتعثر تجربة الحكم العربي في هذه البلاد، مما ترتب عن هذا الوضع المتأزم في ظهور الثورات بإسم الخوارج، إذ مثل هؤلاء الاطار الديني المثالي والذي ألف بين الرفض العميق للهيمنة العربية والتركيبة الدينية التي كانت تستجيب لحاجات البربر[13].

وقد اتسمت حروب الخوارج في المغرب بظاهرتين: **الأولى** في رفض أية دولة تقوم على الجور واللامساواة. و**الثانية** العجز عن إقامة دولة مضادة على أساس تطوير عضوي للبنى المتواجدة آنذاك في المجتمع. فكان من الضروري أن ينظم المغاربة شؤونهم في نطاق الإسلام وليس خارجه فبدا لهم أن نحلة الخوارج تقودهم إلى الهدف فاعتنقوها[14]. فاعتبرت هذه اللحظة الدينية مهمة جدا في تاريخ بلاد المغرب، لأنها سمحت بظهور رؤية مغربية للإسلام تطورت لاحقا في الطرق التي تبحث بدقة عن القداسة، فأخذت جذورها من وجدان البربر وروحهم الصادقة وهذا ما يتطابق في التأليف بين الإسهام العربي والإسهام المحلي، كما ذهب إلى ذلك الباحث "هشام جعيط"[15]. وقد أسفرت هذه الثورات بانفصال بلاد المغرب عن الخلافة في المشرق

وتشكيل كيانات سياسية كالمدرارية في سجلماسة والإباضية في تيهرت، وسنقف عند تجربة هذه الأخيرة لعلاقتها بموضوع المقال.

لقد انتشر المذهب الاباضي بين قبائل هوارة وزناتة وسدراتة ولواتة، ورأت هذه القبائل في المذهب الاباضي المثل الصحيح للإسلام الحق، فاتخذت من شعار المساواة الذي نادى به الاباضيون مبررا دينيا وشرعيا للثورة ضد الولاة[16]. وأبرز ما اتصف به الإباضيون تمسكهم الشديد بالدين، بأداء فروضه واجتناب منهياته، وبغضهم المفرط لأصحاب الظلم والفساد، وهم ينظرون إلى الدين نظرة واحدة متكاملة لا فصل فيها بين المظاهر الروحية والمظاهر المادية[17]. والإباضيون هم أقل جماعات الخوارج غلوا، وأكثرهم اعتدالا[18]، وإن اعتدالهم هذا هو الذي مكنهم من البقاء إلى يومنا هذا، دون سائر فرق الخوارج الأخرى التي اندثرت لأنها تحمل سبب فنائها ضمنها[19]. وبالتالي كان لهجرة هؤلاء الخوارج أثر في تعريب الإنسان البربري على الأقل، وذلك من خلال الإحتكاك به وتلقينه مبادئ المذهب الإباضي.

وعندما استأنس الإباضيون من أنفسهم قوة، نظروا إلى من يتولى أمورهم فلم يجدوا أبرز من عبد الرحمن بن رستم، فاتفقوا على تقديمه (160هـ/776م)[20] ، فقبل عبد الرحمن بن رستم أمانتهم وأحسن السيرة في إمامته، حيث ذكر ذلك ابن الصغير "..فأجمعوا رأيهم على ذلك ثم نهضوا إليه بأجمعهم وقالوا: يا عبد الرحمن رضيك الإمام في ابتدائنا ونحن الآن نرضى بك ونقدمك على أنفسنا، فقد علمت أنه لا يصلح أمرنا إلا إمام نلجأ إليه في أمورنا ونحكم عنده فيما ينوب من أسبابنا..."[21]. وتعتبر مرحلة حكم الإمام عبد الرحمن بن رستم في إدارة دولته أنموذجا لنظام حكم مثالي عملي، حسب ما نقله المؤرخ ابن الصغير السني المذهب عنه؛ إذ التزم بقواعد الدين الإسلامي في مختلف مجالات الحياة، "فلم ينقم عليه أحد في خصومة ولا حكومة، ولا أخذ مالا ولا أقام حدا، ولا مثل إلى الدنيا". فتبني هذا الإمام مشروعا حضاريا، قد زاوج فيه بين

البعد الديني والثقافي داخل هذا المجتمع المتعطش لمعرفة أصول الدين الإسلامي، برزت تجلياته في بعث وتجديد روح الإسلام العملي، ورسم خطة لتعريب وسط غالبيته من الأمازيغ. ولذا سنحاول من خلال هذه الورقة البحثية الوقوف عند مظاهر الأسلمة والتعريب في زمن حكم بني رستم لبلاد المغرب الأوسط.

ثالثا: مظاهر الأسلمة والتعريب في الوسط الإجتماعي الرستمي:

برزت تجليات هذه الأسلمة خلال هذه المرحلة التاريخية من حكم الرستميين لمغرب الأوسط منذ أن وضعوا الأسس لإنشاء مدينة تيهرت، و"السبب أن جماعة الاباضية اتفقت أن ينتخبوا موضعا يبنون فيه مدينة تكون حرزا وحصنا للإسلام"[22]. فالروايات التي حملت فكرة اختيار موضع تأسيس تيهرت توحي أن المكان كان مهجورا، إذ " كان قبل ذلك غياضا عامرة بالوحوش والسباع والهوام"[23].

وبما أن مجتمع المدينة الإسلامية تحكمه ذهنية التكتل والجوار من أجل تنمية المصالح المشتركة، كحق التواجد ضمن فضاءات إجتماعية وأخرى دينية ثقافية[24]، سيكون لها انعكاسات في تعريب الساكنة. وتعتبر تيهرت أنموذجا عن هذه الظاهرة بما حملته بين أسوارها من مرافق جسدت نمط المعمار الإسلامي[25]. ويعتبر المسجد أول معلم وجب تأسيسه عند اختيار موقع هذه المدينة، إذ ذكر الشماخي عن مسجد هذه المدينة في قوله:" فاقترعوا بين أربعة أمكنة بأيها يجعلون المسجد، ووقعت رقعتهم على مكان الجامع"[26]، وهذا المعلم سيساهم في حركة التعريب، بما ستوفره وظيفته الأساسية من إقامة الصلاة وقراءة القرآن باللغة العربية، وإلى فضاء تلقين مختلف العلوم كمدرسة وجامعة؛ حيث أن وظيفة المسجد لم تقتصر على الأمور التعبدية بل تعدته إلى جوانب تعليمية وثقافية وإجتماعية، فحيثما وجد المسجد وجد المعلم والمدرس والواعظ، حتى تكونت مدارس لتلقين علوم العربية بعد ذلك.

وأصبح هذا الفضاء بمثابة مركز ثابت لنشر الاسلام والحضارة العربية بين البربر[27]. ويبدو أن مدينة تيهرت أسس بها عدة مساجد في مختلف الأحياء والديار، حسب تنوع ساكنتها مذهبيا، حيث أشار المؤرخ ابن صغير إلى ذلك في قوله:" وهذا مسجد القرويين ورحبتهم، وهذا مسجد البصريين، وهذا مسجد الكوفيين"[28]. ومن خلال هذا النص يتبين أن هذه المدينة عرفت توافد موجات من هجرات العرب، التي حلت بها ومن بلاد يشهد لها في تفرسها للعلوم العربية. وفي هذا إشارة إلى تجسيد لروح الأسلمة وتعريب المجتمع التيهرتي في ذلك الزمن المبكر من قيام الرستميين في المغرب الأوسط.

كما تجلت مظاهر الأسلمة والتعريب في التمسك بتطبيق تعاليم الإسلام من خلال قنوات التعليم ومعروفة عصرئد في حفظ القرآن الكريم، وتفسيره وتفقه فيه والى جانب تلقين السيرة والحديث النبوي. وهذا ما أكدت عليه غالبية المصادر الإباضية، حيث تصدر الأئمة الرستميون هذا الفضاء فقد كانوا هم الفقهاء والعلماء، بحيث لم يتولوا منصب الإمامة إلاّ لعلمهم بالفرائض وفقههم الغزير، إذ كان هذا شرطا أساسيا في تولي منصب الإمام.

فلم يكتف هؤلاء الأئمة على إلقاء خطب الجمعة بالعربية، والتي تقترن بآيات وأحاديث ودعوات، بل كانوا على اتصال دائم برعيتهم. وفي السياق نفسه، قضى الإمام عبد الوهاب سبعة أعوام في جبل نفوسة في تلقين أهله مسائل تخص باب العبادات. وبالمثل قام هذا الإمام طالبا من أهل جبل نفوسة أن يبعثوا له وفدا من علمائهم يضم كل صنف من العلوم مائة عالم[29]، لغرض التعليم ونشر الثقافة العربية الإسلامية في مجتمع غالبيته من البربر.

وقد لعبت المساجد دورا تعليميا مهما كما سبق التنويه إلى ذلك، حيث تناول العلماء فيها جميع العلوم والمعارف التي كانت مطروقة في العالم الإسلامي، هذه العلوم

والمعارف التي صنفها الدارسون إلى علوم نقلية منها التفسير، والحديث والفقه وعلوم اللغة وآدابها، وأخرى عقلية منها علوم الحساب والطبيعة والفلك والتنجيم، وغيرها...

ففي مجال هذه العلوم النقلية اهتم حكام هذه الدولة بتفسير القرآن الكريم تفسيرا يهدف إلى تقريب معاني الآيات الكريمة من عقول هؤلاء البربر، والتفسير كان أقرب إلى شرح الألفاظ والمعاني منه إلى التفسير الحقيقي، كما كان يهدف إلى توضيح الأحكام الشرعية من صلاة وصيام وزكاة ...[30].

كما شاع التأليف خلال هذه المرحلة التاريخية، إذ اشتهر أئمة بنو رستم بالتأليف في مختلف فنون العلم والمعرفة، وجاءت هذه العناية لتثبيت أصول المذهب الاباضي كمذهب إسلامي، وغرس ثقافة "إقرأ " في أوساط البربر[31]. لقد ألف الإمام عبد الوهاب كتابا ضخما يعرف عند المؤرخ ابن الصغير بـ"مسائل نفوسة" وهو عبارة عن أجوبة لمسائل أشكلت على جبل نفوسة[32]. ويضرب المثل بالإمام أبي اليقظان حيث بلغ في العلم مبلغا عظيما، فكان له حصة الأسد من حيث التأليف أحصيت نحو أربعين كتابا[33].

وقد راجت حركة التأليف في التفسير، مما يوحي إلى تقريب معاني اللغة العربية إلى البربر، إذ تذكر المصادر الإباضية أن عبد الرحمن بن رستم كان له تفسيرا متداولا في قلعة بني حماد خلال القرن الخامس/11م، تنافس على اقتنائه الاباضية الوهبية والنكارية على حد سواء وشدت الرحال إليه لجلبه، غير أنه عد من المفقود[34]. ومن أشهر مفسري هذه الدولة محمد بن يانس وهود بن مكحم الهواري صاحب تفسير كتاب الله العزيز[35].

إلى جانب الاهتمام بعلوم القرآن أولى علماء بنو رستم عناية بالأحاديث النبوية ومن أبرزهم الشاعر والمحدث بكر بن حماد بن سهل الزناتي التاهرتي سمع من سحنون بن سعيد عاش في القيروان ثم عاد إلى تيهرت وفيها مات، وقد ترجم له الدباغ

في قوله:" كان فقيها، فاضلا جليلا، عالما بالحديث وتمييز الرجال، ثقة مأمونا..."[36] ، وذلك من خلال وضع برنامج تعليمي للوقوف عند الشريعة الإسلامية ومبادئها، وهذا بالاهتمام بالمؤسسات التعليمية بدءا من المساجد والكتاتيب وعقد حلقات الدروس.

واختصت هذه الحلقات العلمية، والتي كانت تعقد في مساجد تيهرت، وهي متنوعة بتنوع المذاهب[37] في شتى فنون المعرفة، وهي مؤشر بارز على تشبع هؤلاء الأئمة الرستميين بروح التسامح والحرية الفكرية النابعة من الشريعة الإسلامية، وذلك بتجسيدها داخل المجتمع الامازيغي، حيث اختص الإمام أفلح ابن عبد الوهاب بثلاث منها، وكانت في علم الفقه والكلام واللغة العربية[38]. هذا وقد ذكر " ابن الصغير" أن الإمام أبو يقظان بن أفلح ضرب سرداقه مرة خارج تيهرت، فلما علم الناس بذلك خرج إليه الفقهاء والقراء وضربوا أبنيتهم حول سرداقه [39]، وهذا حتى يحصلون العلم والدروس والوعظ[40]. كما اتخذ هذا الإمام مجلسه بعد انتهاء اضطراب أوضاع تيهرت كالمسجد، طائفة تصلي وأخرى تقرأ القرآن الكريم وطائفة تتذاكر في فنون العلم[41].

وقد انعكست تلك الحلقات للدرس، والتي انتظمت في زمن الرستميين على تأصيل الدين وتعريب اللسان البربري، حيث انتشرت خلال هذه الفترة التاريخية ما بين فزان وقابس وبين جبل نفوسة وتيهرت، وكان يؤمها طلبة من مختلف آفاق المغرب للتفقه في الأصول والفروع والسير والتوحيد والشريعة وأراء الفرق الإسلامية.

وإلى جانب ذلك شاعت عصرئد ظاهرة انتقال العلماء إلى الأحياء والقرى البعيدة لغرض تلقين علوم الدين، حيث كان العالم عاصم السدرتي من الذين رسموا لأنفسهم مسؤولية تعليم الناس، فكان يركب ناقته وينتقل بين الأحياء يضرب في البيداء، يعلم الناس في مضاربهم ويبين لهم ما يجهلونه من أحكام الدين[42].

وكما أسلفنا سابقا أن اللغة العربية كانت لسان علوم وآداب بني رستم، لأن جل عنايتهم كان بالعلوم الدينية التي لا لغة لها غير العربية، مثل كتاب نوازل نفوسة

الذي ألفه الإمام عبد الوهاب بالعربية الفصحى، لذا نجد الشماخي يمدح البيت الرستمي بقوله:"... وكان بيت الرستميين بيت علم في فنونه من الأصول والفقه والتفسير.. وعلم النحو والإعراب والفصاحة وعلم النجوم"[43].

وتثمينا لما توفر لدى حكام بني رستم من كتب نظرا لإهتمامهم بجمعها أقاموا في تيهرت مكتبة عظيمة عرفت بمكتبة المعصومة، وقد حوت على ما يقرب ثلاثمائة ألف مجلد من مختلف أنواع الآداب والفنون والعلوم، ومنها الكتب في علوم التنجيم والفلك[44]، وقد ألف غالبها باللغة العربية مما ساهم في عملية غرس جذور التعريب في المنطقة. وعلى الرغم من شح المعلومات حول طرق تسيير هذه المكتبة، غير أننا لا نستبعد أنها كانت منارة خير في بعث حركة التعريب وتقريب الحضارة الإسلامية إلى تلك الأجواء.

وتعتبر هذه المكتبة قرينة في دعم حركة التعريب، إذ اشتهر الأئمة الرستميون باقتنائهم للكتب من المشرق، في وقت برزت ظاهرة المتاجرة بها بشكل ملفت، خلال هذه المرحلة التاريخية، فذكرت المصادر أن الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم بعث بألف دينار إلى إخوانه في البصرة، وطلب منهم أن يشتروا له بها كتبا، فلما وصلهم المبلغ المالي اجتمعوا وقرروا أن يشتروا بها ورقا ويقدموا من أنفسهم الحبر والأقلام وعولة الكتاب، وأخذوا في النسخ، فنسخوا له أربعين حملا من كتب، وبعثوا بها إليه[45]. وكثيرا ما تنافس العلماء في جمع الكتب وحبسها في سبيل الله في خزائن عامة وخاصة وضمن ملحقة المساجد، وفي هذا المجال أوصى الشيخ أبو الربيع بن أبي هارون بقوله :" مصاحفي وكتبي ...كلها حبس لوجه الله تعالى[46].

ويعتبر تعريب الإدارة وترسيم اللغة العربية في الدولة الرستمية مؤشرا آخر ساهم في تعميق ونشر اللغة العربية في أوساط البربر، فبها كانت تلقى خطبهم في صلاة الجمعة والأعياد وتكتب رسائلهم وعقودهم وتنقش عملاتهم. كما لا نستبعد أن تكون

تلك الرسائل الرسمية، والتي كان غالبها موجها إلى الرعية البربرية، قد ترجم إلى اللسان البربري، للوقوف عند مغزاها.

وهكذا أولى هؤلاء الأئمة العناية بالعربية وعلومها وآدابها، فقد كانت تعقد مجالس المناظرات والمباحثات العلمية، بين التيارات الفكرية الإسلامية، حيث استطاع علماء السنة أن يفدوا إلى تاهرت لمناقشة علماء الإباضية في أمور الدين، فكل من أتى إلى حلقة الإباضية من غيرهم قربوه وناظروه ألطف مناظرة، وكذلك من أتى من الإباضية على حلق غيرهم كان سبيله كذلك، أي قربوه وناظروه ألطف مناظرة.

وبالتالي كانت هذه الحلقات العلمية فرصة في جلب الأهالي من البربر للاحتكاك بالأفواج العربية المثقفة بمختلف نزعاتها. كما ساهمت في عملية انتشار التعريب بالمغرب الأوسط عهد الرستميين، فاهتمام حكام بني رستم في عهدهم الأول بالعلوم الدينية وغيرها، أدى إلى الاهتمام والعناية باللغة العربية، إذ لا لغة لتلك العلوم غير العربية.

ولعل من أهم الأعمال التي أنجزت في ظل حكام بني رستم لبلاد المغرب الأوسط، لصالح مشروع التعريب على الأقل، دور هم في نشر العلم وبناء المساجد وجلب الكتب من المشرق، وذلك بغرض تعميق وربط المغرب بالمشروع الحضاري الإسلامي في نفوس المغاربة. وقد برزت تجلياته في اهتمام الناس بهذا الدين دراسة وعبادة وسلوكا، والتأليف بالعربية إلى حد التفوق. ولا ندعي أن مجتمع بلاد المغرب الأوسط قد تعرب 100% خلال مرحلة حكم الرستميين له، غير أننا لا ننكر حقيقة دور هؤلاء في نشر الإسلام وتقريب تعاليمه السمحة للمغاربة خاصة والعالم الإفريقي عامة من خلال قنوات أخرى قد يكون هذا طرحا لبحث آخر في المستقبل حول جهود بني رستم في أسلمة وتعريب بلاد السودان.

الهوامش:

1- يراجع تفاصيل قيام الدولة الرستمية ضمن مجموعة المصادر التاريخية والدراسات الحديثة من جملتها ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق : محمد ناصر، ابراهيم بحاز، دار المطبوعات الجميلة الجزائر ،1986. أبو زكرياء: سير الأئمة وأخبارهم، تحقيق: اسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1984. الدرجيني : الطبقات المشائخ بالمغرب ، تحقيق: ابراهيم طلاي ، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، 1974. الشماخي، السير، طبع حجري، قسنطينة، الجزائر، 1301. ابراهيم بحاز، الدولة الرستمية، دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية، مطبعة لافورميك، الجزائر، 1985.محمود اسماعيل عبد الرازق، الخوارج ، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، 1976...

2- ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر ، بيروت، 1968، ج6، ص 284.

3- عبد الله العروي: مجمل تاريخ المغرب ، المركز الثقافي العربي ، دار البيضاء المغرب، ط2، 2002، ص 126.

4- Marçais , W ; Comment l'Afrique du nord à été arabiser, IN Articles et conférences . Paris , ; A ; Maisonneuve 1961 ; 171-192. عبد الله العروي، المرجع السابق، ص129

5- المرجع نفسه ، ص 128.

6- محمود اسماعيل ، الخوارج ص 38- 39. ، عبادة كحيلة ، المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب ، ط2، ص 35.أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة الثقافة الجامعية ، السكندرية، 2004، ص 49. عبد المقصود الحميد باشا : موقف البربر من الفتح العربي الإسلامي، مطبعة الجبلاوي، القاهرة، مصر، 1989، 126-127.

7- رابح بونار ، المغرب العربي تاريخه وثقافته، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص 24-25

8- عبد الله العروي، المرجع السابق، ص144.

9- احمد المختار العبادي ، المرجع السابق، ص 49.

10- عبد القادر جغلول ، مقدمات في تاريخ المغرب العربي القديم والوسيط ، ترجمة فضيلة الحكيم ، دار الحداثة للطباعة والنشر، بيروت ، 1982، ص 42.

11- هاشم العلوي القاسمي: مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن الرابع الهجري ، وزارة الأوقاف المغربية ، الرباط، 2001، ج2، ص 144.

12- محمد مبارك الميلي وعبد الله شريط مختصر تاريخ الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر، 1985، ص79.

13- هشام جعيط : تأسيس الغرب الاسلامي –القرن الاول والثاني هـ- السابع والثامن م، دار الطليعة للنشر والتوزيع، بيروت، 2004، ص 159. محمود اسماعيل ، الخوارج ، ص 40.

14- هاشم العلوي ، المرجع السابق، ص 148.

15- هشام جعيط ، المرجع السابق، ص 169.

16- عوض محمد خليفات ، نشأة الحركة الاباضية ، ، مطابع دار الشعب، عمان ،الأردن،1978، ص136.

17- يراجع تفاصيل حول فرقة الخوارج عامة والاباضية بصورة خاصة دراسة الباحث محمود اسماعيل ، المرجع السابق ، الباب الأول والثاني .

18- المرجع نفسه، ص 43-44.

19- نفسه ، ص 43.

20- ابن الصغير ، أخبار الأئمة الرستميين، ص 31.

21- المصدر نفسه ، ص26-27..

22- أبو زكرياء : سير الأئمة وأخبارهم، ص 81.

23- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

24- عبد الكريم غلاب ، قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت، 1996، ص 186.

25- G . Marçais ; Melanges d'histoire et d'archéoogie de l'occident musulman , Alger 1959,t1, p 527.

26- السير ، ص 44

27- محمود اسماعيل ، الخوارج ،ص 38-39.

28- أخبار الأئمة ، ص 32.

29- الشماخي : السير، ص 165. أبو زكرياء:السير ، ص 102-103. الدرجيني ، الطبقات : ج1، ص57-58

30- بحاز ابراهيم ، الدولة الرستمية ، ص 298.

31- المرجع نفسه،ص 288.

32- ابن الصغير : الأخبار ص 17.

33- الدرجيني ، المصدر السابق ، ج2، 319.

34- علي يحي بن عمر: الاباضية في الجزائر، ج1، ص 64. بحاز : المرجع السابق، ص 301.

35- بحاز ابراهيم، المرجع السابق، ص 301.

36- معالم الايمان في معرفة أهل القيروان، مطبعة السنة المحمدية مكتبة الخنجي ، القاهرة، 1968، صص 281-282.

37- ابن الصغير ، أخبار أئمة ، ص 32.

38- الشماخي ، السير ، ص222.

39- أخبار الأئمة ، 83.

40- بحاز ابراهيم ،المرجع السابق، ص 285.

41- الدرجيني ، المصدر السابق، ج2، 319.

42- الشماخي ، السير ، ص 46. معمر علي يحي ، الإباضية في الجزائر ،ص 125.

43- السير ، ص 193.

44- المصدر نفسه، ص 99.

45- الدرجيني ، الطبقات، ج1، ص 56-57. أبو زكرياء: سير الائمة ، ص65.

46- كودري محمود حسين، الحياة العلمية في جبل نفوسة ، ص 98.